تشوُّه البُعد الأخلاقي في نظريات "نهاية" التاريخ الغربي

د. لينا حميدوش[1]

ملخّص

يتناول هذا البحثُ أزمةَ الأخلاق، ضمن ما عُرف بـ"فلسفات وتيارات نهاية التاريخ"، وما نتج عنها من تعرُّض مبدأ "الأخلاق" للتَّشويه؛ نتيجة الدَّعوى التي زعمَت أنَّ التاريخ قد انتهى، وانتهى معه الإنسانُ والقِيَمُ الإنسانية، ومن بين هذه التيّارات الفكرية ظهرت الفَلسفات التي انتصرت للقيم الماديّة مقابل القِيَم الرُّوحيّة، مثل: "الهيجلية" و"الماركسية"، كذلك ظهرت تيارات أكثر حداثة جعلت من العلاقة بين الحضارات علاقة صِدامية، بحيث تمَّ تجاوز القيم الروحيّة والإنسانيّة، والتركيز على القِيَم اللِّيبرالية وقِيَم "العقل الأداتي"، وانتهى البحث إلى تقييم الأفكار التي قدَّمَتها تلكَ الفلسفات، مثل: مبدأ المصلحة والإيتيقا عوضًا عن المعرفة الأخلاقيّة التي تمُيِّز الوجودَ الإنسانيّ.

الكلمات المفتاحية:
نهاية التاريخ، اللِّيبرالية، العقل الأداتي، القيم الأخلاقية، الإيتيقا، القيم المادية.

1 - مدرّسة في قسم الفلسفة، جامعة حلب، اختصاص الفلسفة الهلنستية والوسيطة.

مقدمة

دأبَ الفكرُ الفلسـفيُّ الغربيُّ المعاصر على طرح موضوعات تقليدية في تاريخ الفلسفة على نحو جديد، فبدأ يُناقش موضوعاتِ الفلسفة وفق الاتِّجاهات التاريخية، التي بدأت تفرض نفسَها بقوة، خصوصًا مع ظهور البرجوازية على مسرح التاريخ في القرن السابع عشر، التي أرادت من الفلسـفة أن تخدم قِيَمَ وعلاقاتِ الإنتاج، وهو ما أفضى إلى تنحيـة القِيَمِ الأخلاقية والجمالية، وإخضاعها لِقِيَم السُّوق وعلاقات البشر المادية.

وفي هذا السياق ظهرت الفلسفات التي أخذت تُركِّزُ على مفهوم "نهاية التاريخ"، وأن الإنسان لم يَعُـد فاعلًا ومُنتجًا لحياته إلا بدافع اللّذة، وعلى صعيـد العلاقات المادية، في حين أن القِيَمَ الأخلاقيـة لم تعُدْ ذات أهمية إلا إذا تحوَّلَت لتكون جزءًا من علاقات الإنتاج المادي. وفي هذا الإطار تعدَّدَت نظريات "نهاية التاريخ" بين المذاهب المثالية والمادية، والمذاهب الفلسفية التي بدأت تنادي بـ"نهاية التاريخ" لصالح حضارة بعينها تُهيمن على جميع الحضارات الأخرى، كما فعـل رُوّاد نقد الحضارة مثل (هنتنغتون - Huntington) و(ماركيوز - Marcuse) و(شـبنجلر - Spengler).

وهنا أيضًا نجد أن الحديث قد جرى حولَ الطَّبيعة المادِّية للإنسان، والابتعاد التامّ عن الأبعاد الأخرى للإنسـان، وخصوصًا البُعد الأخلاقي، وهذا ما ظَهـرَ جليًّا أيضًا في النَّظريات المتُعدِّدة للتاريخ، منذ أن بدأت فكرة "نهاية التاريخ" تظهر مع فلسفات القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وعلى رأسها فلسفة (هيغل - Hegel)، فتطرَّق هذا البحث إلى البُعد الأخلاقي الذي شوَّهَته هذه النظريـات، مُحاولةً قدر الإمكان تحويلَ الحياة الإنسـانية إلى مجرَّد علاقات إنتاج، تُسـهم في إنعاش قِيَم السُّوق وتدمير القيم الأخرى. فتناول البحث الطريقة التي تمكَّنَت بها فلسفات "نهاية التاريخ" من تحويل مسار البحث الفلسفي إلى اتِّجاهاتٍ بعيدةٍ كلَّ البُعد عن الجوْهر الإنساني،

وُصولاً إلى مفهوم "العقل الأداتي" الذي يُسيطر اليومَ على العلاقات الاجتماعية والسياسية في العالم المعاصر.

أولاً: نظريات "نهاية التاريخ"

1 - "نهاية التاريخ" لدى المثالية التاريخية (هيغل)

تُعَدُّ فلسفةُ (هيغل) فلسفةً شمولية، بمعنى أنها فلسفةٌ تُعبِّر عن تاريخ الإنسان الشامل، عندما تربط هذه الفلسفة بين الفكر والواقع، كما أن هذه النَّزعة الشموليّة كان هدفها الرئيسي "هو تحقيق الوحدة بين الفكر والواقع، وبين الشكل والمضمون، على نحو يَضمنُ الجمعَ بين هذه الأطراف، وتجاوزها في مُركَّب أعلى، ففلسفة (هيغل) كانَت في نظره مُركَّبًا يضمُّ كلَّ ما سبقَها، لا في ميدان الفلسفة فحسب، بل في كلِّ ميادين نشاط الروح الإنسانية"[1]. وتهتمُّ فلسفة (هيغل) بتفسير التاريخ بناءً على فكرة الصِّراع الذي يَبدو هو المُحرِّك الرَّئيس في التاريخ ومَسيرته"[2].

ويُمكنُ أن نُلاحِظَ أنَّ "نهاية التاريخ" في الفلسفة المثالية، التي عبرَّت عنها فلسفة (هيغل)، تهتمُّ لأمرٍ واحدٍ فقط، هو الوصول إلى "نهاية التاريخ" من خلال مسار الرُّوح، حيث تتضافر هنا ظروفُ الطبيعة مع طبيعة العقل الإنساني، من أجل تحقيق الرُّوح المُطلَق لأهدافه، وهي أن يصل إلى "الكمال النهائي".

فالتاريخ الشُّموليُّ إذن عند (هيغل) لا يُفسح المجالَ من أجل تطوُّر القواعد الأخلاقيّة إلا في سياق نظرية "نهاية التاريخ"، التي تَعني أنَّ جميع القِيَم هي رهنٌ بالوصول إلى أهداف الرُّوح المُطلَق، وليس الأهداف الإنسانية التي تُساعد على انفتاح الإنسان على قِيَمِه، وخصوصًا القيم الأخلاقيّة.

وفي هذا السياق فإنَّ (هيغل) في نظريّته حول "نهاية التاريخ" يَسعى إلى إيجاد أخلاق تسلُّطية، تفرض نفسَها على الإنسان ضمن إطار فلسفته الشُّمولية، بل إنَّ واحدة من المشاكل الكبرى، التي أفضت إليها فلسفة (هيغل)، هي أنها خلقَت سلطةً أخلاقيّةً عبرَ التّاريخ، تَفرضُ قوانينَها على الإنسان، وهذا ما يُشكِّلُ تَشويهًا لفكرة الأخلاق نفسِها، إذ إن الأخلاق التسلُّطيّة التي يَدعو إليها

---

1 - فؤاد زكريا: "هيغل في ميزان النقد"، ص116.

2 - عبد الرزاق الدواي: "الخطاب عن حرب الثقافات في الفكر الغربي"، ص116.

(هيغل) هي أخلاقٌ "عقلية"، تستمدُّ سلطتَها من العقل، ويكون مصدرُها الكفاءة، "فالشَّخص الذي تُحترَمُ سلطتُه يُؤدِّي وظيفتَه بكفاءة في المُهمّة التي يَعهد بها إليه الذين يَمنحونه إياها، وهو ليس بحاجة إلى أن يتوعَّدهم ولا أن يُثير إعجابَهم بالخصائص السِّحرية؛ وما دام يتعاوَنُ بكفاءة بدلَ أنْ يَستغِلَّ، وإلى ذلك الحدِّ، فسُلطتُه قائمةٌ على أُسس عقلية، ولا تَستدعي المهابة غير العقليّة"[1].

ولعل هذا الموقف من الأخلاق التسلُّطية يُؤكِّد ما نذهب إليه، وهو أن (هيغل) لم يكن لِيَسمح للأخلاق الإنسانيّة الفرديّة أن تُعبِّر عن نفسها، وربَّما نستطيع القولَ إن (هيغل) يَسعى إلى وضع أخلاق كونيّة تَفرضها السُّلطةُ أكثر ممّا يسعى إلى وضع أخلاق تنطلق من محوريةِ فردانية الإنسان مثلاً. وما يُؤكِّد هذا السِّياق هو أن (هيغل) كان يُريد من خلال فلسفته إقامةَ الدَّولة الألمانية، التي لا يَعنيها الفردُ بالمعنى الأخلاقيّ، بقدر ما يَعنيها الفردُ بالمعنى السياسيّ؛ أي: أن يكون هذا الفردُ في خدمة الدولة لا في خِدمة الأخلاق، وأن يكون ترجمةً حقيقيّةً لمصالح الدولة والسلطة، وليس مُنتجًا للمعرفة الأخلاقيّة، أو السلوك الأخلاقيّ، وهذا يُشير إلى أن فلسفة (هيغل) الشُّمولية كانت تهتمُّ بالقِيَم الاقتصاديّة أكثر من اهتمامها بالقِيَم الأخلاقيّة.

ثم إنَّ إعجاب (هيغل) بالثورة الفرنسية، التي أراد لها أن تَحدث في بلاده ألمانيا، إنمَّا يُوضِّح لنا أنه أراد، من خلال فلسفته، أن يُنتِجَ الإنسانَ الصِّناعيَّ الاقتصاديَّ، وليس الإنسان الأخلاقي، الذي يُنتِجُ القِيَمَ الأخلاقيّة؛ فالثورة الفرنسية التي أُعجب بها (هيغل) كانت قد "أعلنَت السُّلطانَ المُطلَق للعقل على الواقع، وفسَّرَت ذلك بإطلاق الصِّناعة من عقالها، وتَرجمَته عَمَليًّا بالسَّير في طريق الحرية الاقتصادية إلى أية نتائج يُمكِنُ أن تُؤدِّيَ إليها، فكانت النتيجةُ المزيدَ من المذابح والرُّعب والإرهاب، ونظامًا ليس هو تجسيدًا لحكم العقل كما يفترض أن يكون"[2].

ومن الواضح أن (هيغل) إذن قد عمل على إنتاج فلسفة شمولية، لا تَدعو إلى "نهاية التاريخ" فحسب، بل إنَّها -وهي تُعلن ذلك- نجدها تَدعو أيضًا إلى نهاية الأخلاق، بغَضِّ النَّظر عن أنها هي التَّعبير الحقيقي عن فرادة الوجود الإنسانيّ، كما أن الأخلاق هي الميزة الأساسية التي يُمكِنُ للإنسان من خلالها أن يَبني حضارات قادرة على التَّعايش الأخلاقيّ، بدون أن تتحوَّل الأخلاق إلى سلعة في سوقٍ عالَمية تَدخل فيه القِيَمُ فتُباع وتُشترى.

1 - إريك فروم: الإنسان من أجل ذاته بحث في سيكولوجية الأخلاق، ص44.
2 - حامد خليل: مشكلات فلسفية، ص183.

2 - "نهاية التاريخ" لدى المادية التاريخية - (ماركس) والماركسية

يتابـع (ماركس - Marx) ما قدَّمَه (هيغل) على صعيد إنتاج فلسـفة جوهرها "نهاية التاريخ"؛ إذ اسـتطاع (ماركس) أن يَدفع بمفهوم "نهاية التاريخ" الذي وجـده في قلب "الجدلية الهيغلية" نحو نهاياته، ومع (ماركس) نجد أنفسَنا أمام نَسَق فلسفيّ ماديّ صِرف، فهو قد استبعد الجوانب الروحيّة، كما استطاع أن يَستثمر الفكرَ التَّنوريَّ في أوروبا القرن الثامن عشر، ليَتَّخذ منهجًا أساسيًّا لتفسـير التاريخ تفسـيرًا ماديًّا اشـترك فيه مع (انجلز)، وكوَّنا معًا "المادية التاريخية" التي لَخَّصا من خلالها "المراحل الخمس للتاريخ، وهي: المَشـاعية البدائية، الرِّقُّ والإقطاع، الرأسـمالية، الاشتراكية، الشُّيوعية"[1].

وأمام هذا الفهم الماديِّ للتاريخ وعلاقاته يُعيد (ماركس) من جديد تأصيل سُلطةِ المادة على أيَّة سُلطة أخرى، فالإنسان ليس مُلكًا لنفسه بقدر ما هو خاضع لسُلطة المادة، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يُميِّز الخيرَ من الشرِّ، وإنَّما عليه أن يَنصاع للنظام الماديِّ الذي يُقرِّرُ بحسب المصالح الاقتصادية ما هو الخير وما هو الشرُّ، وهذا يَعني أن (ماركس) يُكرِّس الأخلاقَ التَّسلُّطيّة ومهابةَ السُّلطة المادية التي تَفرض نفسَها على هذا الإنسان.

ومرة أخرة فإنَّ فلسـفة (ماركس) التي تُؤسِّس لـ"نهاية التاريخ"، من خلال الجانب المادي، تعود لِتُكرِّسَ الأخلاق التَّسـلُّطية؛ "فالإنسـان غيرُ قادر على معرفة الخير والشرِّ، ومانحُ المعيار هو على الدَّوام سـلطةٌ تتجاوز الفَرد. ولا يتأسس نظام كهذا على العقل والمعرفة، بل على مهابة السُّلطة وشعورِ التّابعِ بالضَّعف والاتّكال، ويَستلزمُ التَّسليمُ للسُّلطة بصنع القرار الاعترافَ بقدرتها السـحرية؛ فقراراتها لا يُمكِنُ ولا يجوز أن تُناقَش. وماديًّا أو مضمونيًّا، تُجيب فلسـفةُ الأخلاق التسـلُّطية عن سـؤال 'ما هو جيد أو رديء'، وفي المقام الأوّل على أسـاس مصالح السُّلطة، لا مصالح التّابع، وهي اسـتغلالية، على الرَّغم من أن التابع قد يَستمدُّ منها الفوائد الكبيرة، النَّفسية أو المادية"[2].

اسـتطاعت هذه الفلسفة الشُّـموليّة أيضًا أن تُعلي مِن شـأنِ المَصلحة أكثرَ من الأخلاق، فما يَسـعى إليه (ماركس) هو خَلْق مجتمع مادِّيٍّ تَقوم العلاقات فيه على المصالح الماديّة أكثر مما

---

1 - علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، ص255.

2 - إريك فروم: الإنسان من أجل ذاته بحث في سيكولوجية الأخلاق، ص45.

تقـوم على القِيَم الأخلاقية السَّـليمة، ويَبرز هنا مفهومُ الحتمية التاريخية بشـكل واضح، فليس لدى الإنسـان أيّةُ قدرة على الخروج خارج القبضة الحديدية لعلاقات الإنتاج الاقتصادية، ويبدأ الإنسان في هذا السـياق بعيش الاستلاب الأخلاقي، ليصل فيه إلى درجة العجز، بحيث تصبح جميعُ القِيَم الدِّينية والأخلاقية والجمالية تابعةً لسلطة السُّوق، إذ يكشف (ماركس) عن أن الهدف الأساسيَّ للأخلاق، الذي هو تحقيق السعادة، يَختفي تمامًا في مجتمع المعاناة الاقتصاديّة. لنجد أن الأخلاق التسلُّطية في المجتمع الماديِّ تَفرض نفسَها بوصفها عائقًا في تقدُّم الحياة الأخلاقية الإنسانيّة، فيُصبح المجتمعُ مصدرَ الشَّقاء للإنسان، أكثر مما هو مَصدر لسعادته وتحقيق إنسانيته.

ففي مجتمع المصالح الماديّة الاقتصاديّة تسـقط الأغلبية في فخِّ المعاناة الأخلاقية والشـقاء الإنسـاني"، وذلك من خلال تَشويه القِيَم الأخلاقيّة لصالح سيادة القِيَم الاقتصاديّة الماديّة، وهو ما يَكشـف عنه (ماركس) في نقده لطبيعة الأخلاق التسـلُّطية في مجتمعـات البرجوازية، التي هي مرحلة أساسـية في فكر (ماركس) ضمن مسـيرة "نهاية التاريخ"، فالمجتمعات البرجوازية هذه، وهي تحاول إحكامَ السَّـيطرة على التاريخ والإنسـان معًا، نجدها تَنشر البُؤسَ، كما تكون شـاهدة على تدهوُر المجتمع وقِيَمه الإنسانيّة، وفي هذا الشأن يكتب (ماركس) في مخطوطات 1844 فيقول: "هكذا ففي حالة تدهوُر المجتمع: ازدياد بُؤس الإنسان، وفي حالة تقدُّمه: البُؤس بتعقيداته، وفي مجتمع في حالة تطوُّر كامل: البُؤس الساكن"[1].

اسـتطاعت فلسـفةُ (ماركس)، وهي تتحـدَّث عن "نهاية التاريخ"، أن تكشـف عن التشـوُّه الأخلاقي الذي يُصيب الإنسانَ في ظلِّ سيطرة العلاقات المادية، وسيطرة المصالح الاقتصادية، وفي سـياق صراع المصالح يتحوَّل الإنسانُ إلى كائن مُشوَّه، بسبب التخصُّص الآلي والصناعي المبتور، الذي يَحولُ دون ارتقاءِ الإنسان أخلاقيًّا، كما يُفترَض أن يكون عليه الحال.

3 - "نهاية التاريخ" في إيديولوجيا الحضارة الغربية (شبنجلر) و(هربرت ماركيوز)

يتناول (شـبنجلر) مفهومَ الحضارة بوصفه نِتاجَ التاريخ الغربيِّ، ويَسـتبعدُ جميعَ الشُّـعوب الأخرى التي شـاركت في إنتاج الحضارة، فهو إذن يَشترك مع بقية الفلاسفة في أن التاريخ ليس سـوى تاريخ الغرب وحضارته، وأكثر ما يُؤخَذ على (شـبنجلر) في نظريته حول "نهاية التاريخ"

1- كارل ماركس: مخطوطات عام 1844 الاقتصادية والسياسية، ص12.

أنه استطاع أن يُكرِّسَ المفاهيمَ العقلانية التَّصنيعيّة الرأسمالية في موقف واضح لِتَنحية الجانب الروحانيِّ الأخلاقيّ، وجعله عنصرًا ثانويًّا في بناء الحضارة. وهذا يَعني أن (شبنجلر) يُدرك جيِّدًا أن مُهمَّتَه التاريخيّة إنَّما تَصُبُّ باتِّجاه تأكيد قِيَم الحضارة الغربية المادية على حساب القيم الأخرى، فقد سعى جاهدًا إلى ضرورة إحلال المفاهيم المادية الرأسمالية محلَّ القِيَم الأخلاقية والدِّينية والرُّوحية، فهو يذكر ذلك صراحة عندما يتحدَّث عن طبيعة الحضارة الغربية من خلال قِيَم المادة والإنتاج الصناعي، بدلاً من القِيَم الأخلاقية أو الدِّينية، فهو يقول عن الحضارة الغربية بأنها "تتمثَّلُ بالقول بالطّاقة بَدلاً من الله، وبحفظ الطّاقة بدلاً من السَّرمديّة. وهكذا فإن فلسفتنا الغربية تتأرجَحُ يمنةً ويسارًا بين الدِّين والعلم التِّقني، وهي تُعرَف على هذا الشكل أو ذاك، وذلك حسبما يكون واضع التَّعريف، أكان لا يزال في هذا الواضع بعضٌ من أثر كهنوتي، أم كان خبيرًا مجرَّدًا وتقنيًّا في الفكر"[1].

ولعلَّ هذا الاستبدال بين العلم التِّقني والدِّين كان سببُه سيطرةَ التكنولوجيا على التاريخ الغربيّ، وفرض هذه التكنولوجيا على جميع الحضارات الأخرى، وبدلاً من سيطرة الأخلاق على الحياة الإنسانية، فقد أخذت السَّيطرة تتحوَّل إلى سيطرة الإنسان على الإنسان، وأخذ مفهوم العقل التكنولوجي يأخذُ مكانَه مُستبعِدًا بذلك العقل الأخلاقيّ، لنجد أنفسَنا أمامَ تاريخ مكتمل من خلال نظام الأشياء الموضوعية وقوانين الاقتصاد والسُّوق، بحيث تأخذ السُّلطة شكلاً هرميًّا بحسب اهتمامات المجتمع، ففي رأس الهرم تُوجَد التُّكنولوجيا بكل مُنتجاتِها العقلية والمادية. وأما في قاعدة الهرم فلن نجدَ سوى المَشاريع الحكومية الهادفة إلى تنظيم المجتمع تنظيمًا ماديًّا، يهدف إلى استغلال الإنسان، كما يهدف إلى استغلال الطبيعة أيضًا، وبهذا الشكل تتخلَّصُ الحضارة الغربية من وجهها الأخلاقي، كما تتخلَّص من غاية الحضارة في بناء الإنسان، لتصبح تلك الغاية هي اضطهاد الإنسان واستغلاله، وما يَبدو إنسانيًّا في هذه الحضارة، التي تمثل "نهاية التاريخ"، إنمَّا هو في حقيقته بناءٌ مزيَّف، يستند إلى قِيَم مُزيَّفة.

فالحضارة الغربية كما يَرى (شبنجلر) استطاعت أن تُوجِدَ عالَمًا من القِيَم الذّاتية، فأفسحَت المجالَ أمامَ الأنانية وحبِّ الذات الفردية، في حين لم يَعُدْ للواقع الأخلاقي أيُّ وجود في هذا البناء الحضاري، وفي هذا الشأن يَلتقي (شبنجلر) مع (هربرت ماركيوز) الذي يتحدَّث

1- أسوالد شنبجلر: تدهور الحضارة الغربية، ص449.

عن الإنسان ذي البُعد الواحد، حيث تَنتهي القِيَمُ جميعُها، ومن بينها القيم الأخلاقية، لتكون مُجرَّدَ استنباطٍ بحسب ما يَقولُه (ماركيوز) حول هذه المسألة: "وإذا كانت قِيَمُ الخير والجمال والسَّلام والعدالة غيرَ قابلة للاستنباط من الشروط الأنطولوجية أو العلمية، فلا مَجال بالتالي لأن نُطالب بتحقُّق وتقيُّد عامَّيْن بها، وليست في نظر العقلانية العلمية إلا مُشكلات تتعلّق بالتَّفضيل الشَّخصي. ولما كانت هذه الأفكار غيرَ علمية، لذا فإنَّها لا تستطيع أن تُواجِهَ الواقعَ القائمَ إلا بمعارَضة ضعيفة واهنة. وبذلك تُصبِحُ مجرَّدَ مُثُل عُليا، ويَتبخَّر مضمونها العينيُّ التَّقدُّمي في أجواء الأَخلاق أو الميتافيزيقا"[1].

من الواضح إذن أنَّ (شبنجلر) و(ماركيوز) يُقدِّمان مفهومًا جديدًا للحضارة والتاريخ، تغيب فيهما الأخلاق والقِيَمُ الأخلاقية لصالح القيم المادية، التي تَهدف بالدرجة الأولى إلى إعلان "نهاية الإنسان" بوصفه كائنًا تاريخيًا، وتَقديم أخلاق جديدة مُشوَّهة ليس فيها من القواعد الأخلاقية سوى شكلها، في حين أن مضمونها أصبح مُفرَّغًا تمامًا في إطار فكرة "نهاية التاريخ".

أ - القِيم المادية في مقابل القِيم الأخلاقية

تقوم إذن نظرياتُ "نهاية التاريخ" على فكرة مركزيّة، وهي سَلبيّةُ الإنسان تجاه نفسه وتجاه الآخرين من الناحية الأخلاقية، وبدلًا من أن تُسيطِرَ النَّزعةُ الإنسانيّة على الحياة، فيَسعى الإنسان إلى إغناء حياته الأخلاقية والرُّوحية، فإنَّنا على العكس نجد أن القيم المادية هي التي بدأت تُسيطر على الحياة، وإذا كانت القِيَم الأخلاقية أساسًا للوجود الإنسانيِّ في الثقافات والحضارات، التي تعاملَت مع الإنسان بوصفه غايةَ التاريخ، فإنَّ نظرياتِ "نهاية التاريخ" أرادَت أن تقولَ بأنَّ أساس الوجود الإنسانيِّ لم يَعُدِ الأخلاق والقيم الأخلاقيّة، بقدر ما أصبح أساس هذا الوجود هو العِلم الطبيعي القادر على تطوير الصناعة، وبالتالي إنتاج قِيَم السُّوق والتَّصنيع.

وقد عبَّر (ماركس) عن ذلك بشكل صريح عندما قال: "فالصِّناعة هي العلاقة التاريخية الفعليّة للطَّبيعة، ومن ثَمَّ للعلم الطبيعيّ، بالإنسان، ومن هنا فإذا أدركت الصناعة باعتبارها انكشافًا خارجيًّا لقوى الإنسان الجوهريّة، فإنَّنا نكسب أيضًا فهمًا للماهيّة الإنسانيّة للطَّبيعة، أو الماهيّة الطبيعيّة للإنسان. وبالتالي فإن العلم الطبيعيّ سيَفقد اتِّجاهَه الماديّ المُجرَّد، أو بالأحرى اتِّجاهه

1 - هربرت ماركيوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ص185.

المثاليّ، وسيُصبح أساسَ العلم الإنسانيّ كما أصبح بالفِعل أساسَ الحياة الإنسانيّة الفِعليّة، وإن يكن في شكلٍ مُغترِبٍ."[1].

ونتيجة لهذا الأساس الجديد للحياة، في إطار نظريات "نهاية التاريخ"، نجد أنَّ الأخلاق خصوصًا، والحياة الإنسانيّة عمومًا، قد تحوَّلَت بشكل نهائي نحو نوعٍ جديد من العبادة، التي يُركِّز عليها نُقّادُ فلسفة التاريخ والحداثة، التي شكَّلَت آخِرَ مراحل التاريخ، وهذه العبادة تجلَّت في تَشويه الحياة الإنسانيّة في جوهرها الدينيّ والأخلاقيّ، إذ بدأت فلسفاتُ التاريخ تُحوِّل الحداثةَ إلى موضوع للعبادة، فأخذَ الإنسان يَشهد عالَمًا بائسًا وكئيبًا على صعيد الفِكر الأخلاقيّ والاجتماعيّ بسبب عبادة الحَداثة، وهو ما يُشير إليه بعضُ النُّقّاد بالقول:" فالتَّفكير الجادُّ بالحياة الحديثة تمَحوَرَ حولَ نَقيضَينِ عَقيمَين، يمُكِنُ أن نُطلِقَ عليهما اسمَ عبادة الحداثة، (تحويل الحداثة إلى صنم معبود)، و(اليأس الثقافيّ والحضاريّ)"[2].

ثانياً: "نهاية التاريخ" في فكر ما بعد الحداثة

1 - (هنتنغتون) وصدام الحضارات و"نهاية التاريخ"

يُثير (هنتنغتون) في نظريته حول صدام الحضارات قضيّة "نهاية التاريخ"، فيقول إنَّ الإنسان وصل إلى مرحلة لم يَعُدْ فيها قادرًا على الاستمرار بكل أشكال الوجود السّابقة، مثل: المجتمع والدولة، وإمكانيّة أن يكون الإنسان الفَرد فاعلاً على صَعيد حياته الشَّخصية، كما على صعيد الحياة العامّة، فيَطرح (هنتنغتون) فكرةَ التعدُّدية في الوجود الدِّيني والأخلاقي للإنسان، بحيث يُعطِّلُ هذينِ الوُجودَينِ لصالح مَفهوم الصِّراع بين الغرب والشرق؛ أي: بين حضارة غربية مُتقدِّمة وحضارة شرقيّة مُتخلِّفة، وفي هذا السياق يَصِفُ (هنتنغتون) الحضارةَ الغربية بالحضارة العالَمية، التي يجب أن يتمَّ فرضُها على جميع الناس، وأن تُصبحَ نَموذجًا للعيش في العالَم، وبالتالي فإنَّ كلَّ إنسان يَخرج عن تقاليد الحضارة الغربية هو إنسانٌ شاذٌّ ومُنحرفٌ، وليس لديه أدنى قُدرة على الاستمرار، وكنتيجة لهذا المسار طرحَ (هنتنغتون) نظريَّةَ "نهاية التاريخ" بمثابة إعلانٍ عن نهاية كلِّ أشكال الحياة المُختلفة عن النَّمط الغربي.

---

1 - كارل ماركس: مخطوطات عام 1844 الاقتصادية والسياسية، ص63.

2 - مارسيل باريمان: حداثة التخلف، ص157.

كما أنَّها جاءت تأكيدًا على إنهاء الخُصوصيّات التاريخية، وخصوصًا تلك المُتعلِّقة بالقِيَم الأخلاقيّة، إذ لم يَعُدْ هناكَ مِن قِيَم أخلاقيّة على الإطلاق، وكلُّ ما يتحدَّث عنه (هنتنغتون) هو قِيَمُ الاقتصاد الحُرِّ واللِّيبرالية الغَربية، بهذا الشَّكل يَطرحُ نَموذجًا جديدًا للحضارة تُقتلَع منه القِيَمُ الرُّوحية والأخلاقية لصالح القِيَم الماديَّة، إذ يُعلِنُ (هنتنغتون) "أنَّ قِيَمَ الحضارة الغربية هي الدِّيمقراطية، والاقتصاد الحرُّ، وفصل الدِّين عن الدولة، واللِّيبرالية، والدُّستورية، وحقوق الإنسان."[1].

وأهم تشويه يقوم به (هنتنغتون) للأخلاق إنمَّا يتجلَّى في أنَّه يَنزعها نهائيًّا من نموذجه الحضاري الجديد، فلا نجدُ في قاموسه أيَّ تناوُلٍ للحياة الأخلاقية، بقدر ما أنَّه يُحاوِلُ أن يُكرِّسَ في خطابه قِيَمَ العلمانيـة، وتَحويل كلِّ مـا هو دينيٌّ وأخلاقـيٌّ إلى حالة تُراثيّة، وفي هذا السـياق نجد أن (هنتنغتون) يَسـتعيض عن الأخلاق بإعلان حقوق الإنسـان، والتي هي حقوق الإنسان الغربي حصرًا، إذ لا يَنظر (هنتنغتون) إلى الإنسان خارج إطار الحضارة الغربية على أنه كذلك، فلم يعد القانون الأخلاقي ضروريًّا ما دام القانون الطبيعي موجودًا، وهو ما يُعلِنُه (هنتنغتون) عندما يُؤكِّد "فكـرةَ القانون الطبيعي (المادي) بكلِّ ما يتضمَّنُه ذلك من إنهاء للتاريخ والإنسـان والهويّة من جهـة، ومن جهة أخرى كلّ مَن يُقاوم ذلك ولا يُوافق عليه، ويَرى أن الإنسـان ليس مجرَّدَ مادة، وهذه هي الصِّلة الحَقيقية بينَ الإسلام والكونفوشيوسية"[2].

على هذا النحو إذن يَمضي (هنتنغتون) على خُطا فلاسـفة "نهاية التاريخ"، الذين مَهَّدوا لهذه النَّظريـة، إلا أنـه يَدفع بالفكـرة إلى نهايتِها القُصوى، عندمـا يُؤكِّد -كما رأينـا- أنَّه لم يعد هناك أمامَ الإنسـان سـوى أن يَنتمي إلى النَّمط والنَّموذج العلماني الأوروبي الغَربيّ، وأن يتخلَّى عن المُقوِّمات الأساسـية التي قامت عليها الحضارات، مثل: الدِّين، والأخلاق والقِيَم الاجتماعية، إذ يتجاوز (هنتنغتون) مفهومَ الأخلاق لِيَصِلَ إلى مفهوم الحقِّ الطبيعيِّ، وكأنَّه بذلك يُعيد الطَّبيعة البشريّةَ إلى مفهومها الطَّبيعي ما قبلَ الاجتماعيِّ، وما قبلَ الدِّينيِّ، وما قبلَ الأخلاقيّ.

2 - (فوكوياما) والإنسان الأخير

يَشـتقُّ (فوكوياما - Fukuyama) مفهومَ الإنسان في نظريّتِه حول "نهاية التاريخ" بالعودة إلى

1 - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص165.

2 - م.ن.، ص167.

(أفلاطـون - Plato)، وتحديـدًا مفهوم الـ"ثيمـوس"[1]؛ فهو لم يَعُدْ يَجد في الإنسـان أيّةَ فرصة للتَّعايـش الأخلاقـي والاجتماعي، ولم يَبقَ من الإنسـان عند (فوكوياما) سـوى مَفهوم الصِّراع وإدارة المَعركة بين الإنسـان والآخر، بحيث يكون إثبات الذّات هو أسـاس الوجود الإنسـانيّ، وهذه المعركة التي يَخوضها الإنسانُ ضدَّ الإنسان هي معركةٌ من أجل "الاعتراف" وإثبات الذّات الفرديّة، وليس الذّات الإنسـانيّة العامّة، ففي هذا الشـأن يقول: "فَمِـنَ الأهمِّيّة بمكان أن تكون المَعركـةُ الأوَّليّةُ في بدايـة التاريخ مَعركةً للاعتبار المَحْض ... إن السَّـبب الذي من أجله أُقاتِلُ هو الحُصول من كائن إنسـانيٍّ آخر على اعترافِه بِكَوني أُخاطر إراديًّا بحياتي، وبأنَّني بالتالي حرٌّ وإنسانيٌّ حقًّا"[2].

نلاحظ إذن أن (فوكوياما) لا يهتمُّ لأية قِيَم إنسـانيّة أو أخلاقيّة تُسهم في جعل البشر يعيشون حياةً أخلاقيّـة، ويَعترفون بعضُهم ببعض، كما كان الأمر في الحضارات التقليدية، فالأخلاق لم تعد ضروريةً في بناء الحضارة، والإنسـان يَعيش انطلاقًا من دوافعه المادية التي يُؤمِّنُها له النظام الإمبريالي بصيغته الدِّيمقراطية الوَهميّة، ولهذا نجد أن (فوكوياما) لا يَبحث عن الكمال الأخلاقيّ بقدر ما يَبحث عن الكمال السِّياسي، فالإنسان لم يعد كائنًا أخلاقيًّا بقدر ما أصبحَ كائنًا سياسيًّا، عليه أن يسـعى إلى إثبات ذاته الفرديّة، بعيدًا عن الذّات الجَمعية الإنسانية التي تُنظِّمُها الأخلاقُ الإنسـانيّة، فما يُحرِّكُ التاريخَ ليس العامـل الأخلاقيّ، بل هو الصِّراع من أجل الاعتراف بالذّات الفرديّـة. وفي هذا الشـأن يقول (فوكوياما): "انتصارُ الغرب أو المِثـال الغَربيِّ ظهرَ في مَقولة أنَّ النِّظـامَ القابلَ للحياة، الذي يَسـتطيع أن يحلَّ محـلَّ اللِّيبرالية الغربية، قد فقـد أملَه في الوجود ... ويُمكِن أن نُلاحِظ الانتشـارَ الكبير لثقافة الاسـتهلاك الغربية: الأسواق الفلاحية، بيع أجهزة التِّلفزيون المُلوَّن في الصِّين ... عشق الرّوك الذي اجتاح كلًّا من براغ، زانغو، طهران"[3]!

نلاحظ أن (فوكوياما) يتجاهل الأخلاقَ، ويحاول أن يُقدِّمَ صورةً مُشوَّهةً عن الوجود الإنسانيّ، وهي صـورةٌ تَقوم على الصِّراع من أجل إقصـاء الآخر، وتأكيد الذّاتية الفرديّـة، وهو أمر تَرفضه

1 - التيموس أو روح الإنسان: هو قوة كامنة في روح الإنسان تتبدّى وتتجلّى من خلال الصراع الإنساني حول الاعتراف بالذات المنبثقة عنها القوة في الوجود.

2 - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ص157.

3 -ن.م.، ص79.

الأخلاقُ التي تَقوم أساسًا على القِيَم الجماعية، التي تَسمح بتطوُّر الإنسان الفرد ضمنَ تطوُّر الجماعة الإنسانيّة، وأيضًا هنا يتمُّ إسقاط الأخلاق على حساب قِيَم اللِّيبرالية وقِيَم الغرب التي بدأت تَفرض نفسَها على المجتمعات كافّة.

3 - الدِّيمقراطية اللِّيبرالية و"نهاية التاريخ"

استطاعَتِ الدِّيمقراطية الغربية الحديثة أن تُسهم إلى حدٍّ كبير في رسم معالم نظرية "نهاية التاريخ"، عندما حاولَت أن تربط بين الدَّولة والنَّظريات السياسية المتعلِّقة بـ"نهاية التاريخ"، ونجد أن مفهوم الدِّيمقراطية ارتبطَ بشكل أساسيٍّ بالدُّول الصناعية الغربية، التي أكَّدَت أن هذه الدولة هي نهاية أيِّ شكل سياسيٍّ للمجتمع، وتَقوم الدِّيمقراطية في عُمقها على جعل الإنسان مرتبطًا بشكل مباشر مع الاقتصاد والقِيَم المادية، والإعلاء من شأن الفرد على حساب المجتمع. إن الليبرالية في جوهرها "تُركِّز على أهمية الفَرد، وضرورة تحرُّره من كلِّ أنواع السَّيطرة والاستبداد، فاللِّيبرالي يَصبو على نحو خاصٍّ إلى التحرُّر من التسلُّط بنوعيه: تسلُّط الدَّولة وتسلُّط الجماعة."[1].

وبهذه الطريقة تمكَّنَت اللِّيبرالية والدِّيمقراطية، بوصفهما نمطًا سياسيًّا لنظريات "نهاية التاريخ"، من تدمير العلاقة الأخلاقية بين الفرد والجماعة، ما دام المطلوب هو تحقيق حرية الفرد دون قيود أو شروط أخلاقية، وأصبح الخيرُ هو الخيرُ الفَرديُّ فقط، فما يراه الفردُ خيراً هو الخير الجدير بأن يَسعى إليه الفرد، فقد ركَّزَت اللِّيبرالية على "الفرد وأهمية الحرية الفردية، ويمُكِن القولُ إنَّ اللِّيبراليِّين يُشجِّعون كلَّ فرد على البحث عن الخير، وتحديده ضمن البنية السياسية، التي تُحدِّد وتَفرض ما هو الحقُّ."[2] ومن الملاحَظ أن اللِّيبرالية قد أكَّدَت على الاستخدام الحرِّ للسُّلطة بعيدةً عن أيّةِ ضوابطَ أخلاقية أو إنسانية، وكلُّ ذلك تحت دَعوى إقامة العدل والمساواة في مجال الثروة، وليس في مجال الحياة الإنسانية العادلة وذات البُعد الأخلاقيّ.

4 - "العقل الأداتي" ونهاية العقل الأخلاقي.

يتميَّز "العقل الأداتي"، كما حاولت فلسفات "نهاية التاريخ" أن تشرحه، بأنَّه عقلٌ مُتوحِّش، إذ

1 - معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، ص155.

2 - إدوارد .م . بيرنز: النظريات السياسية في العالم المعاصر، ص12.

إن فلاسفة "نهاية التاريخ" مثل (ماركيوز) و(هوركهايمر - Horkheimer) و(أدورنو - Adorno) و(هابرماس - Habermas) قد أوضحـوا مفهوم "العقل الأداتي" تمييزًا له عن "العقل النَّقدي"، بالقول إنَّ "العقل الأداتيّ" هو: "ترجمة للمصطلح الإنكليزي (instrumental reason) ويُقال له أيضًا العقلُ الذاتيُّ أو التِّقنيُّ أو الشَّكليُّ، وهو على علاقة بمُصطلحات مثل العقلانية التكنولوجية أو التكنوقراطية، ويقف على الطَّرف النَّقيض من العقل النَّقدي أو الموضوعي."[1].

ولعـل أكبر تشـويهٍ خضعَت له الأخلاق قد جاء بسـبب طغيان "الفلسـفة الأداتية"، والتأكيد على "العقل الأداتي"، الذي يهتمُّ بالوسـائل والإجراءات من دون أن يهتمَّ بالغايات، وهنا يصل التَّشويهُ الأخلاقي إلى ذروته، إذ لم يعد الهدفُ مُرتبطًا بالغايات الإنسانية، بقدر ما أصبح الهدف هو السَّـيطرة على الطبيعة الإنسانية، وقد هيمَنَ هذا العقل على المجتمعات الغربية بشكل كبير، وتُحاول الفلسفاتُ المُعتمِدةُ على "العقل الأداتي" أن تجعل منه الشكل الوحيد للحياة الإنسانية، فجميـع الأشـياء والقيم تدخل نظامَ الإنتاج الرأسـمالي المجرَّد، مـن دون الأخذ بعين الاعتبار لأيـة قِيَم أخرى داخل المجتمع، إذ إنَّ "أحد أهمِّ أسـباب ظهوره هو آليـات التَّبادل المُجرَّدة في المجتمع الرأسـمالي. فتبادُل السِّلَع يَعني تسـاوي الأشـياء المُتبادلة، فما يهمُّ في السلعة ليس قيمتها الاسـتعمالية المُتعيِّنة وإنَّما ثمنها المجرَّد، والأيديولوجيـا النابعة من هذا التبادل المجرَّد هي أيديولوجيـا واحدية، تَمحو الفروقَ وتُوحِّد الواقعَ، مُسـاويةً بين الظَّواهر المختلفة، بحيث يُصبح الواقعُ كلُّه مادةً لا سِمات لها."[2].

لقد تمكَّن "العقل الأداتي" من إهدار إنسـانية الإنسـان عندما حوَّلَ كلَّ شيء إلى مجرَّد ربح ماديٍّ لا صيغة أخلاقيّة له، بحيث يَنفصل المثالُ عن الواقع، ويَنفصل الجزءُ الإنسانيُّ عن الكلِّ الطَّبيعي، ولا تَبقى سـوى علاقات الاستغلال التي يجب على الإنسان أن يعيش تحت وطأتها، وليـس هناك من قيمـة أخلاقية أو إنسـانية، فليس هناك من خصوصيات تاريخية، ولا سـمات أخلاقية تَفصل بين الأفراد، والإنسـان بسـبب "العقل الأداتي" يتحوَّلُ إلى شيء من الأشياء، بل وأصبح الإنسان مادةً استعمالية كغيره من المواد التي تأتي بالرِّبح والثَّروة، فيصبح الإنسان عاجزًا عن تحقيق أيِّ تجاوز معرفي وأخلاقي.

---

1 - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص87.

2 - م.ن.

ثالثًا: مصائر مبحث الأخلاق في نظريات "نهاية التاريخ"

1 - "نهاية التاريخ" ونهاية النظام الأخلاقي

استطاعَت فلسفات "نهاية التاريخ" أن تصل بالأخلاق إلى أكثر من التشويه، بحيث يُمكِنُنا القولُ إنَّ هذه النظريات قد حوَّلَت الإنسانَ إلى سلعة من السِّلع، فأصبحت الحياة الإنسانية مُعتمِدةً على عناصر مادية واقتصادية وسياسية لا أكثر، وأصبح الإنسان في حالة صراع وهيمنة مع الطبيعة، وعندما يتمُّ التركيز على هذا الجانب فإن الجوانب الأخرى، ومنها الجانب الأخلاقي، لم تعد موجودةً على الإطلاق، وأمام التَّركيز على مفهوم "العقل الأداتي" فإنَّ نظام الأخلاقِ يَنهار بالكامل، إذ إنَّ النتائج التي وصلَت إليها فلسفات "نهاية التاريخ"، عندما أعلنَت عن هيمنة "العقل الأداتي" كما رأينا، قد جعلت كلَّ نظام أخلاقي بحُكم المُنتهي من الطبيعة الإنسانية، وهنا استعانت فلسفاتُ "نهاية التاريخ" بالفلسفة الداروِنية التي أكَّدَت على أفكار الواحدية الماديّة. فالإنسان هو جزء من هذا العالم الذي هو "مادة واحدة صدر عنها كلُّ شيء، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية، ولا تُوجَد داخلها مُطلَقات مُتجاوزة من أيِّ نوع. فالعالَمُ طبيعة، والطَّبيعة محايدةٌ لا تَعرف الخيرَ أو الشرَّ أو القُبحَ أو الجمال. ولا تُوجَد أيّةُ ثغرات في الكون، إذ إنَّ المنطق الماديَّ حتميٌّ شامل يَشتمل على كل شيء، ولا تُوجَد ثنائياتٌ في الكون، إذ يُردُّ كلُّ شيء إلى المادة، ويُفسَّر كلُّ شيء بالتطوُّر الماديّ."[1].

وإمعانًا من تلك الفلسفات في إنهاء النِّظام الأخلاقي مع فكرة "نهاية التاريخ"، فإنَّها قد سعَت إلى جعل الإنسان خاضعًا للقانون الطبيعي من دون غيره، فالوجود الإنسانيُّ لا يَرتبط بأيِّ قانون أخلاقي، ذلك أنَّ هذه الفلسفات قد أكَّدت أن الإنسان ما هو إلا " جزءٌ من هذه الطبيعة وهذه المادة، وقد صدر هو أيضًا عنهما من خلال عملية التطوُّر، إذ لا يُوجَد سوى قانون طبيعي واحد يَسري على الإنسان والأشياء، فالوجود الإنساني نفسُه يتحقَّق من خلال الآليات التي يتحقَّق من خلالها وجودُ كلِّ الكائنات الأخرى، أي الصِّراع والقوة والتكيُّف"[2]. ومن خلال ربط الإنسان بمفهوم المادة، واعتبار وجوده جُزءًا من الوجود العامِّ، استطاعت فلسفات "نهاية التاريخ" أن تُشوِّه البُعد الأخلاقي للإنسان؛ إذ لم يعد أمامَ الإنسان سوى أن يحافظ على بقائه من خلال

---

1 - عبد الوهاب المسيري. الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص101.

2 - م.ن.، ص101.

استخدام القوة والسيطرة، وكلِّ الوسائل التي تُسهم في جعله قادرًا على التكيُّف مع الظروف بالطريقة نفسها التي يعيش فيها أيُّ كائن آخر.

2 - من الأخلاق إلى "الإيتيقا"

تمكَّنَت نظرياتُ "نهاية التاريخ" من البحث عن بدائل للأخلاق الإنسانية، عندما بدأت تطرح مفهومَ "الإيتيقا" في محاولة لتشويه مفهوم الأخلاق الذي يسود في عصر من العصور، والذي يَرتكز على " مجموع الأوامر المُسلَّم بها في عصر وفي مجتمع مُحدَّدَين مع جهد الالتزام بهذه الأوامر والحثِّ على اتِّباعها"[1]. وإذا كانت الأخلاق على هذا النحو فإنَّ الهدف الذي سعَت إليه فلسفات "نهاية التاريخ" هو إحلال "الإيتيقا" محلَّ الأخلاق، إذ لم يعد الهدف من "الإيتيقا" البحث عن المشترك الإنساني، الذي يجعل وجودَ الإنسان غايةَ كلِّ فعل أخلاقي، لنجد أن "الإيتيقا" قد أخذت المَقولات الأخلاقية إلى مواضع جديدة، فرضتها الحياةُ المعاصرة، خصوصًا الحياة الغربية، ولهذا فقد انصبَّ اهتمام "الإيتيقا" على تدعيم الانقلابات الاجتماعية المرتبطة بمفاهيم فردية أكثر مما هي مفاهيم جماعية إنسانية، لهذا نجد أن "الإيتيقا" اهتمَّت بالجانب الفردي الأخلاقي، وتجاهلَت الأخلاقَ الجماعية، مثل: "الاهتمام بالتحرُّر الجنسي والحياة المادية ومنازعة أشكال النفوذ، أو على الصعيد الجماعي كتأكيد الحقوق الفردية والجماعية"[2].

وهذا يَعني أن "الإيتيقا" أخذَت على عاتقها أن تشرح المُشكلاتِ الأخلاقية ضمن الأُطُر الضِّيِّقة المرتبطة بانتشار العلوم الطبيعية، أكثر ممّا هي مرتبطة بالعلوم الأخلاقية وشروطها الإنسانية، وتحوَّلَ البحث الأخلاقي من بحث عن أخلاق مشتركة عامّة لجميع الناس إلى بحث عن الأخلاق الفردية الآنية المتَّصلة بالوجود الآني، "والملح في الوجود العينيِّ للناس، وليس في الخير الأقصى أو بالقانون الذي يَشترعه العقل العملي، أو بالقيمة المتعالية التي تخضع لها الذوات"[3]. وبهذا الشَّكل استطاعَت "الإيتيقا" أن تُقدِّمَ نموذجًا جديدًا للأخلاق، وهو ليس سوى نموذجٍ مُشوَّهٍ للأخلاق نفسها، فالخير لم يعد هو الخير الأقصى، بل أصبح هو الخير الفردي فقط.

1 - عبد العزيز العيادي: إيتقا الموت والسعادة، ص43.
2 - م.ن.، ص46.
3 - م.ن.، ص47.

3 - نهاية المعرفة الأخلاقية والتأسيس للمعرفة والمصلحة

لعلَّ واحدة من النتائج التي أفضت إليها فلسفات "نهاية التاريخ" هي الإقدامُ على استبدال المعرفة الأخلاقية بمفهوم أو مَقولة "مصلحة المعرفة"، إذ لم يَعُدِ الرِّضا عن الحياة والوجود مرتبطًا بالقيمة الأخلاقية للحياة الإنسانية، بقدر ما أصبح هذا الرِّضا مرتبطًا بالمصلحة، فعلاقة الإنسان مع الوجود وتصوره له أصبحت مرتبطة بوجود المصلحة، بحيث تكون "المصلحة هي الرِّضا الذي يَربطنا مع تصوُّر وجود موضوع ما أو وجود فعل ما، وهي تهدف إلى الكينونة، لأنَّها تُعبِّر عن علاقة الموضوع المَعنِيِّ بمقدرتنا على التمنِّي، المصلحة إما أنها تشترط مسبقًا احتياجًا ما، أو أنها تُنتِج احتياجات ما، وهذا ما يُماثل التَّمييز بين المصلحة التَّجريبية والمصلحة المَحضة"[1].

فمن الواضح أن مفهوم المصلحة أو مقولة مصلحة المعرفة أصبحت هي التي تُوجِّه الأخلاقَ، والفعلَ الأخلاقي في فلسفات "نهاية التاريخ". ذلك أن الأفعال الأخلاقية لم يَعُدْ لها أيّةُ قيمة إلا إذا ارتبطت بالخَير العملي، الذي عمل على إنتاجه مفهومُ العقل العملي بالدرجة الأولى، فكلُّ أخلاق لا بدَّ أن تَنصاع لأوامر العقل العملي، الذي ما انفكَّ يُؤكِّد على أن المصلحة العملية هي المصلحة المحضة، وهذا نوع من التشويه الواضح والصريح لمفهوم الأخلاق النَّظرية، هذه الأخلاق التي قامَت على فكرة الواجب، في حين أن البحث عن الرِّضا العملي بالخير قد حَوَّل الأخلاقَ إلى علاقات المَصالح، إذ إن "الرِّضا العملي بالخير يَعني الأفعال التي تكون مُتعيِّنة من خلال مبادئ العقل، إنمَّا هي مصلحة محضة، ما دامت الإرادة تفعل انطلاقًا من احترام قوانين العقل العملي، فإنها تأخذ مصلحة من أجل الخير"[2].

لقد تمكَّنَت فلسفاتُ "نهاية التاريخ" من تَشويه مفهوم الأخلاق المرتبطة بالواجب وبالكرامة الإنسانية، وتَحويل الأخلاق إلى ميدان لتحقيق المصالح، ومن أجل تقديم معرفة أخلاقية أصبح لا بدَّ من ربط هذه المعرفة بالمصلحة، إذ إنَّ العقل العملي هو الذي يُوجِّه مسارَ الأخلاق، فيجعل هذا المسارَ يَتكيَّفُ مع المصالح المادية قبل أن يُقدِّمَ تطوُّرًا للأخلاق الإنسانية، التي طالما ارتبطت مع جوهر الوجود الإنساني القائم على القيم الأخلاقية المشتركة بين الجماعات الإنسانية.

---

1 - يورغن هابرماس. المعرفة والمصلحة، ص186.

2 - م.ن.، ص187.

خاتمة

يُمكِن التوصُّل مـن خلال هذا البحث إلى جملة من الاسـتنتاجات، التي أفضى إليها تاريخ ظهور نظريات "نهاية التاريخ"، والتي يمُكنُ إجمالُها بالنقاط التالية:

1. استطاعت الفلسفة المثالية كما الفلسفة المادية أن تُشكِّل لحظةً تاريخية في سبيل تشويه الأخلاق، عندما طرحت هذه الفلسفاتُ فكرةَ أنَّ الإنسان قد أنجز وظائفَه التاريخية، وما عليه سوى أن يعيش مُرتهنًا للظاهرة التاريخية في بعدها الاقتصادي، من دون الالتفات لإمكانية تطوير الحياة الأخلاقية، بحيث تُصبح جوهرَ الوجود الإنساني، وهو ما فعلته فلسفةُ كلٍّ من (هيغل) المثالية، وكارل (ماركس) المادية.
2. استطاعت نظريات "نهاية التاريخ" أن تُركِّزَ الصِّراع الإنساني حولَ قضية الوجود المادي بعيدًا عن أيـة جوانب روحية وأخلاقيـة، وهذا أفضى بهذه الفلسـفات والنظريات أن تجعل الإنسـانَ يَعيش الجانبَ المصلحيَّ المعرفيَّ بعيـدًا عن الجوانب الأخلاقية، إذ تصبح المصلحة هي التي تَجمع البشر، وهي التي تَسمح لهم بتبرير استغلال الإنسان للإنسان، ما دامت الرَّوادع الأخلاقيّةُ أصبحَت مُهمَّشةً في الحياة اليومية، وهذا ما وجدناه في فلسفات بِعَينها كما فعلت "الفلسفة الأداتية"، وفلسفة نظام السُّوق الاجتماعي، كما هو الأمر عند (هابرماس).
3. بعضُ النَّظريات التي تناولَت مفهومَ "نهاية التاريخ" تمكَّنَت من نقل الصِّراع من الحقل الاقتصادي إلى الحقل الثقافي، فأخذَت تُؤسِّس للإنسان ذي البُعد الواحد، الذي عليه أن يَعيش مُنصاعًا للأيديولوجيا الغربية، التي استبعدَت بالدرجة الأولى القِيَمَ الأخلاقية من نظامها الفكري والسياسي، وهو ما وجدناه عند (ماركيوز) و(شبنجلر).
4. تمكَّنَت نظريـاتُ "نهاية التاريخ" من دفـع القِيَم الأخلاقية نحو نهايـة فيها الكثير من التشـويه، عندما أخذ أصحابُ هذه النَّظريّات يتحدَّثون عن الصِّدام الحضاري، الذي عليه أن يُنجزَ المهامَّ التاريخية، التي من أبرزها الوصولُ إلى فكرة الإنسان الأخير الذي تُسيطر عليه النَّزعةُ الاستهلاكية من دون غيرها من النواحي والجوانب الإنسانية، وعلى رأسها الأخلاق، وهو ما وجدناه لدى (هنتنغتون) و(فوكوياما).

المصادر والمراجع

1. باريمان، مارسيل، حداثة التخلف، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1993م.
2. بيرنز، إدوارد .م، النظريات السياسية في العالم المعاصر، تر: عبد الكريم أحمد، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1988م.
3. الجابري، علي حسين، فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993م.
4. خليل، حامد، مشكلات فلسفية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1997م.
5. الـدواي، عبد الرزاق، "الخطاب عن حرب الثقافات في الفكر الغربي"، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج (36)، عدد (2)، أكتوبر 2007م.
6. زكريا، فؤاد، "هيغل في ميزان النقد"، مجلة الفكر المعاصر، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، مج (12)، عدد (67)، 1970م.
7. زيادة، معن، الموسوعة الفلسفية العربية، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1986م.
8. شبنجلر، أسوالد، تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لا ط.، د.ت.
9. العيادي، عبد العزيز، إيتقا الموت والسعادة، دار صامد للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2005م.
10. فروم، إريك، الإنسـان من أجل ذاته بحث في سـيكولوجية الأخلاق، تر: محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2007م.
11. فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، تر: فؤاد شاهين وآخرين، مركز الإنماء القومي، بيروت، لا ط.، د.ت.
12. ماركس، كارل، مخطوطات عام 1844 الاقتصادية والسياسية، تر: محمد نستجير مصطفى، نشرت في مجلة الحوليات الألمانية الفرنسية عام 1884م. (مصدر إلكتروني)
13. ماركيوز، هربرت، الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي، منشورات الآداب، بيروت، ط3، 1973م.
14. المسيري، عبد الوهاب، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط4، 2010م.
15. هابرماس، يورغن، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002م.